وتأكيداً على الاستقلال، اقترح سيغال البدء، فوراً، باصدار جواز سفر لاي فلسطيني في بقاع المعمورة يرغب في الحصول عليه؛ ويصدر اعلان يفيد بأن الدولة الفلسطينية ستسمح بازدواجية المواطنية؛ اي ان الفلسطينيين الذين هم مواطنون في دول اخرى سوف يُشَجّعون على تقديم الطلبات من اجل الحصول على جوازات السفر واستخدامها.

كما طالب بأن يتضمّن الدستور الجديد للدولة التأكيد على ان فلسطين هي دولة ديمقراطية ذات سلطة قضائية مستقلة، وتعلن، كذلك، وثيقة حقوق لحماية الحريات الفردية، وتطلب من الامم المتحدة الاشراف على اول انتخابات محلية ممكن اجراؤها.

هذه الاستراتيجية تتعارض، طبعاً، مع تيارين متناقضين: التيار الاول قديم ويمثله الفكر القومي العربي التقليدي الذي لا يرى بديلاً من دولة فلسطين «الكبرى»، والثاني يمثل الواقع السياسي الفلسطيني الراهن، الذي يربط، بصورة ميكانيكية، بين قيام الدولة الفلسطينية وتوازن المصالح الذي يجب ان يأتي «كحل سياسي». ولكن الاستراتيجية المقترحة تتعارض، ايضاً، مع ما لم ينفك قادة اسرائيل، في غالبيتهم، يرددونه، منذ مدة طويلة، وهو ان فلسطين لم تكن يوماً ما موجودة؛ وان وجدت، فان صيرورتها تقع في منطقة ما من شرق نهر الاردن.

على ان اهمّ عيوب الكتاب مرتبط بهوية كاتبه اليهودية. بيد ان هذا لا يعني، بتاتاً، ان ما ينتجه الباحثون اليهود هو، بالضرورة، ملائم لادارة الظهر له. لكن التماثل بين قيام اسرائيل وقيام الدولة الفلسطينية يسكن بال كاتبنا هنا اكثر من اللازم بكثير. ولما كنّا نعني بالدولة ذلك الكيان السياسي المنظم، الذي له ارض محددة قدر الامكان، وشعب مميز قدر الامكان، وحكومة منظمة، الى حد ما، ووجود معترف به دولياً، من خلال عضوية الامم المتحدة، مثلاً، فاننا نسارع فنقول، ايضاً، انه يصعب علينا، بأي مقياس، اعتبار التجربة الاسرائيلية مثالاً يحتذى به في هذا الخصوص؛ انها، تاريخياً، كيان استيطاني، نشأ من خلال عدوان يدعمه الغرب على شعب عربي مسالم يقيم على ارض فلسطين.

واذا كنّا لا نخفي رغبتنا، ولن نضمر حماسنا لتداخل العطش الى الدولة والسعي اليها مع الظمأ الى قيامها، فان حدّة الجزم هذه قد تستوقف، احياناً، القارىء المتمهّل. لكن هذا لن يمسّ سوى الثانوي. ألا تستوجب الحالة الفلسطينية الحدّة، او كما يحظر سيغال، التطرف ؟

في العمق، قد يفتقد القارىء المعنيّ سيغال كمؤرخ. ان طرح المسألة اساساً في مستوى استراتيجي له ما يبرره، خصوصاً عندما يؤدي هذا الاختيار الى اهتمام بتوضيح بنود تلك الاستراتيجية، بأكبر قدر ممكن من الدقة. غير ان القارىء، في محطة الكتاب الاولى، يبقى متعطشاً لبعض الامثلة التاريخية، باستثناء اسرائيل طبعاً، وقد تجاوزها هاجس التنظير بسرعة.

وفي السياق ذاته، قد يفتقد القارىء، ايضاً، التحليل النظري لمسألة «الولاء»؛ فهي، في التجربة التاريخية الفلسطينية، على الاقل، جوهرية. ونجدها على مستويات مختلفة، منها، طبعاً، انتقال الولاء الاقليمي والعشائري الى الدولة الحديثة؛ ومنها التناقض المقلق بين الولاء لوطن، وبين الولاء لامة.

كما قد يفاجأ القارىء بغياب عنصر آخر، هو التعلّق بالارض. ان احد عناصر قيام الدولة الحديثة، بالتوازي مع شعور وطني، كان الوجود الطويل ثمّ التعلّق العاطفي ببقعة حافزاً يعتدُّ به في هذا المجال، وفي التجربة الفلسطينية، على وجه التحديد.

د. نبيل حيدري